السلوك المرضى و علاقته بالعملية الإبداعية

(دراسة تاريخية و تحليلية لحياة و فن "ليوناردو دافنشى")

مقدم من

أ. م. د / محمد عبد السلام عبد الصادق محمد هلال

أستاذ مساعد تاريخ الفن– قسم التصوير

ملخص البحث :

يتناول البحث علاقة السلوك غير المألوف للمبدع بتجربته الإبداعية، وكيف يلعب المرض دورا مؤثرا فى تغير الفكر والرؤى لدى المبدع، ويكون ذا تأثير على طريقة تناول الموضوع واختلاف المهارات، كل ذلك من خلال دراسة تحليلية وتاريخية لسيرة أحد أعلام عصر النهضة، وعبقرى الفن والعلوم على مر العصور ""ليوناردو دافنشى"، حيث يناقش البحث ما ورد فيما كتب عنه من وثائق تاريخية وما ورد فى مذكراته من أنه عاش نباتيا، يحرم على نفسه أكل كافة أنواع اللحوم، حتى أدى ذلك فى النهاية لإصابته بجلطة دماغية أثرت على ذراعه، وانعكست على سلوكه وتصرفاته سلبيا، وغيرت شكل الإبداع الفني لديه، خاصة خلال السنوات الأخيرة من حياته.

Summary:

The research is discussing the relation between creator's up normal behavior and his creative. And how the disease plays an affective role in changing thoughts, visions, subject modifications and skills of the creator. All these through historical study and analysis for the life of one of the most famous men in art and science of all ages "Leonardo da Vinci". The research is showing through the dairy of da Vinci and the historical documents that he was vegetarian, and forbid eating any kind of meat. This was the main reason for his suffering of hemiparesis that had negative impacts on his arm, behaviors and doings, and changed the shape of his artistic creativity, especially during the last years of his life.

مقدمة :

يشير الكاتب "جوليان بوجوسلافسكى" "Julien Bogousslavsky" إلى أن ثمة تغيرات طرأت على شخصية الشاعر الفرنسي "جويلوم أبوللينير فى مؤلفه حول العلاقة بين الإبداع والسلوك المرضى" "Guillaume Apollinaire" (١٨٨٠-١٩١٨م) بعد الحرب العالمية الأولى، وقد أرجع الباحثون ذلك إلى أنه ظل يعانى حتى نهاية حياته من صداع نصفى مزمن، أدى به لاحقا إلى شلل نصفى، وهو نفس الأمر الذى حدث سابقا مع الشاعر الفرنسي "جاى دى موباسان" "Guy de Maupassant" (١٨٥٠- ١٨٩٣م) ، وانعكس على أشعاره اللاحقة نتيجة إصابته بالمرض (Bogousslavsky, 2005, p. 90).

على الجانب الآخر يؤكد الكاتب "ميشيل ج. هينيريشى" "Michael G. Hennerici" فى كتاب "Neurological Disorders and Creation" أن الاضطرابات العصبية أحيانا ما تكون حافزا للتجديد فى تجارب المبدعين، وقد ركز فى دراسته على نماذج الفنانين فى القرن العشرين باعتباره عصر التحولات الحادة سياسيا واقتصاديا، ومن حيث كونه أعاد تشكيل المفاهيم فى وعى الإنسان الحديث، فذكر- مبرهنا على نظريته- جانبا من سيرة المصور الأمريكى- الهولندى الأصل- "ويليم دى كونينج" "Willem de Kooning" (١٩٠٤- ١٩٩٧م وسيرة المصور التأثيرى الألمانى "لوفيس كورينث" "Lovis Corinth" (١٨٥٨-١٩٢٥م) وغيرهما (Hennerici, 2010, p.4) .

لذا.. وفى نفس السياق.. تظل السيرة الذاتية للفنان والمعمارى "ليوناردو دافنشى"- بما يعتريها من غموض حول تفاصيل حياته وسلوكه وحبه المتطرف لكافة أشكال الحياة مجسدة فى الحيوانات والطيور- مسار جدل وبحث مستمر فى محاولة لكشف أسرار عبقريته، والمعانى الكامنة فى أعماله الفنية ، وأسباب إخفاقاته وتدهور صحته ثم موته المفاجىء.

كان "ليوناردو دافنشى" (١٥أبريل١٤٥٢-٢مايو١٥١٩م) معماريا وموسيقيا ودارسا لعلوم التشريح علاوة على كونه مخترعا ونحاتا ومهندسا ميكانيكيا ومصورا عاش خلال ما يعرف فى تاريخ الفنون باسم "عصر النهضة"، وتذكر الوثائق التاريخية التى جمعت عن حياته أنه كان نباتيا، محبا ومحترما للحيوانات، ولما كان النظام النباتى فى التغذية ذا آثار إيجابية وسلبية على النظام الدماغى والنشاط العقلي بشكل خاص، فقد عانى "دافنشى" فى سنواته الأخيرة بعض الاضطرابات فى الفص المخى الأيمن.

ويحاول البحث الحالي إيجاد علاقة محتملة بين النظام الغذائي النباتى الذى كان يتبعه "دافنشى" وبين رحلته فى مجال الإبداع الفني والمخترعات التى سبقت عصره بعشرات القرون، وما أدى به فى النهاية إلى الإصابة بما يشبه السكتة الدماغية تبعا لآراء العلماء

والمؤرخين فى هذا الشأن، بعد أن ترك ميراثا غير مسبوق من الإبداع يعكس مدى ما كانت تتسم به هذه الشخصية من قدرات استثنائية مثيرة للاهتمام والبحث.

البحث

كان معاصرو "دافنشى" يصفونه بأنه "النموذج الأصلي لرجل النهضة" "Archetype of Renaissance Man" و"عبقري العالم"، وبالفعل.. لقد حقق دافنشى شهرة من خلال عدد من الأعمال العظيمة، منها لوحته "العشاء الأخير" ولوحته الأشهر "موناليزا"، وهى أعمال لازالت تثير جدلا بمضمونها ومعالجاتها التشكيلية الفريدة ، كذلك كان معروفا بوضعه لتصميمات عدد من الاختراعات التى تعد اليوم أساسا لتكنولوجيا العصر الحديث، على الرغم من أن القليل جدا من هذه التصميمات والأفكار تم تنفيذها أثناء حياته، علاوة على ذلك فقد كانت له إسهاماته فى مجال علم التشريح، وعلوم الفلك وهندسة التحصينات العسكرية.

نشرت السيرة الذاتية لـــ"دافنشى" لأول مرة على يد الرسام والمعمارى الإيطالي "جيورجيو فازارى" "Giorgio Vasari" (١٥١١- ١٥٧٤) وذلك فى عام ١٥٥٠م، ضمن كتاب بعنوان" The Lives of the Most Excellent Italian Architects, Painters and Sculptors" "حياة أشهر المعماريين والمصورين والنحاتين الإيطاليين"، معظم المعلومات التى أوردها "فازارى" كان قد استقاها مباشرة من معاصرى "دافنشى"، وتظل هى المعلومات الأقيم حول حياة "دافنشى".

هو ابن غير شرعي لكاتب عدل يدعى "بييرو دافنشى" وامرأة قروية تدعى "كاترينا"، فى مقاطعة "فينشى" "Vinci" بمدينة "فلورنسا" "Florence" ، أظهر "ليوناردو" عبقرية وموهبة غير مسبوقتين فى العالم، مغلفتين كلية بروح "عصر النهضة" الإيطالي، وكان جليا فى شخصيته أنه فى طريقه لخلق أشكال أعلى وأعمق من التعبير فى مجالات متنوعة من المعرفة والفنون، كموسيقى ومعمارى ونحات ومصور وعالم تشريح وفلك كان- ولازال- يعد واحدا من أعظم عباقرة العصور.

قالت عنه المؤرخة الفنية "هيلين جاردنر" "Helen Gardener" أن عمق ومجال اهتماماته غير مسبوق فى التاريخ" (Gardener, 1975) ، كما كتب عنه المؤرخ "جان بول ريختر" "Jean Paul Richter"[i] فى مؤلفه :

كان ليوناردو يوصف دائما بأنه الرجل الذى لا ينافس فضوله الجامح إلا قواه الاستثنائية فى الاختراع والإبداع وهو أكثر المصورين فى العالم موهبة على مر العصور،تبدو شخصيته وعقله وكأنهما لرجل خارق،غامض وبعيد](Richter, 1977, p.23).

حقا كانت شخصية "دافنشى" محاطة بهالة من الغموض، وكانت سلوكياته أحيانا غير مقبولة، وخارج استيعاب المنطق، فبجانب طبيعته الفنية كان ذا طبيعة اجتماعية متفردة،

وقد تجمع لدى المؤرخين لمحات عن حياته من خلال كتاباته الشخصية ومن خلال ما كتب فى وثائق السيرة الذاتية المبكرة عنه.

تذكر الوثائق أن "دافنشى" كان محبا للحيوانات، ولم ينعكس هذا الحب على السلوك الفردي والاجتماعي لـــ"دافنشى" فقط ، بل إن المتأمل فى أعماله الفنية سيلحظ كما لا يمكن إغفاله من الدراسات السريعة Sketches والرسوم التى أوقفها على تناول الحيوانات والطيور والحشرات وغيرها من الكائنات الحية خلاف البشر (شكل ١) و (شكل ٢) ، لم تكن كل تلك الرسوم مجرد نتاج شغف فنى، بل كانت تعبيرا حقيقيا عن حب "دافنشى"– الذى يبلغ حد التطرف أحيانا– للحياة ذاتها، الحياة فى صورتها المجردة، بحيث لا تقل حياة شجرة أو طائر قيمة– فى نظره– عن حياة الإنسان، وقد عبر "دافنشى" نفسه فى مذكراته عن هذا المفهوم الأقرب لمعتقد صوفى.

(شكل ١) دافنشى- جرف صخرى و بط- قلم و حبر على ورق- ١٤٨٥ مقتنيات Windsor - Royal Library

(شكل ٢) دافنشى- دراسة لسرطان البحر- غير مؤرخ مقتنيات -Wallraf-Richartz-Museum Cologne

كان "ريختر" أول من قام بفك شفرات مذكرات "دافنشى" الشخصية، حين قال فى كتابه "The Literary Works of Leonardo da Vinci" "الأعمال الأدبية لليوناردو دافنشى") :

[نعرف أن "ليوناردو" كان شخصا نباتيا، وذلك من خلال معلومات عابرة وردت ضمن الرسائل الأولى التى أرسلها "أندريا كورزالى" "Andrea Corsali"[ii] لـــ "جوليانو ميدتشى" "Giuliano de Midici" (راعى "دافنشى" وشقيق البابا "ليو الخامس" "Leo X")، بعض الملحدين (فى إشارة خاصة للهندوس) لا يتغذون على أى طعام يحوى دما، كما يحرمون إيذاء أي شكل من أشكال الحياة ، وقد كان كان "دافنشى" معتنقا للأفكار نفسها] (Richter, 1977, p.17)

فى عام ١٨٩٨م كتـــب المـــؤرخ "إيـــوجيـــن مونتـــز" "Eugene Muntz"[iii] فى كتـــابه " Léonard da Vinci, l'artiste, le penseur, le savant", **"ليوناردو دافنشى : الفنان ، والمفكر والباحث"** أن "رسائل كورزالى تكشف كيف كان دافنشى يحرم على نفسه

أكل اللحوم، وهو ما يبدو اليوم أشبه بموضه بين آلاف الأشخاص على مستوى العالم "(Muntz, 1899, p.42).

بينما كتب "إدوارد ماك كوردى" "Edward MacCurdy" فى كتابه "The Mind of Leonardo da Vinci" "عقل ليوناردو دافنشى" قائلا :

[يحكى "فازارى" مدللا على عشق "دافنشى" للحيوانات، كيف أنه كان يدور فى "فلورنسا"، وأينما وجد متجرا لبيع لطيور، كان يحرص على ألا يظل طائرا حبيس القفص ، وكان أحيانا يعرض على البائع نقودا شرط أن يخرج الطيور من أقفاصها ويطلقها لتنال حريتها..!] (MacCurdy, 1928, p.12)

وفى كتاب "Leonardo : Discovering the Life of Leonardo da Vinci" نقرأ للكاتب "براملى" "Bramly" تعليقا يؤكد نفس المعلومة "كان حب "دافنشى" الشديد للحيوانات وراء سلوكه الغذائي، حيث كان نباتيا تماما" (Bramly, 1991, p.9) ، وفى نفس السياق يكتب الناقد والفنان الإيطالي "أليساندرو فيزوسى" "Alessandro Vezzosi" (أحد الباحثين المتخصصين فى حياة وفن "دافنشى") فى كتابه "Leonardo da Vinci- The Mind of the Renaissance" "ليوناردو دافنشى– عقل النهضة" أن "دافنشى كان يحرم على نفسه أكل اللحوم وكأنه أحد معتنقى البوذية" (Vezzosi, 1997, p.24).

لم يقف تعلق "دافنشى" الشديد بالحيوانات خلف ذلك النظام الغذائي الصارم فقط، بل لقد انعكس بشكل كبير على إبداعه الفني، فنحن نكاد نلمس مدى ما كانت يعتمل فى داخله من أفكار ورؤى حول مفهومه عن جوهر الحياة فى تلك الأعمال المتأخرة تاريخيا، حيث صار يتخذ من الأسطورة مصدرا أساسيا لاستلهام أعماله، فنجد امتزاج أشكال الحياة بين البشر والطيور وسائر الكائنات الحية، أو بمفهوم آخر.. فقد أراد "دافنشى" من خلال لوحاته الأسطورية أن يشير إلى مفهوم "وحدة الحياة".(شكل ٣)

حيث نرى فى اللوحة تزاوج "زيوس" كبير آلهة الإغريق، والذى تجسد فى هيئة الطائر (البجعة) بالمرأة "ليدا"، بينما تبدو بشائر نسلهم أطفالا تخرج من البيض، فى امتزاج تام مع عناصر الطبيعة التى تحيط بهم وتشغل مساحة الخلفية.

(شكل ٣) دافنشى- لوحة "ليدا و البجعة"- ألوان زيتية على خشب- ١٥١٠م
من الأعمال التى تكشف مفهوم وحدة الحياة تبعا لأفكار "دافنشى"
من مقتنيات Salisbury - Wilton House

وحين يتناول "دافنشى" بريشته عناصر الفاكهة والخضروات وأوراق الشجر يتجاوز إحساسه مجرد تسجيل عناصر الطبيعة الصامتة إلى التوحد مع شكل آخر من أشكال الحياة،

فنلمح تلك الرقة المفرطة والدقة فى نقل التفاصيل (شكل٤) ، حيث يبدو فى العمل نفسه بعض الرسوم والتخطيطات العاجلة الأخرى التى تتجسد على نفس السطح الذى رسم عليه، وكأن "دافنشى" كان تنتابه الأفكار حول مخترعاته وتصميماته بينما هو متوحد مع عناصر الحياة النباتية.

ولا عجب إزاء ذلك ، فالفنان الذى كان يؤثر الغذاء النباتى على ماعداه استلهم من ثمار الطبيعة- برؤية المبدع- مثيرا جماليا، ورأى فيها- من ناحية أخرى- جسدا ينبض دفئا وحيوية، وروحا جديرة بالتأمل، وتمتلىء بالقيم الروحانية والرموز التى لا تخلو من جلال وقدسية. (شكل ٥)

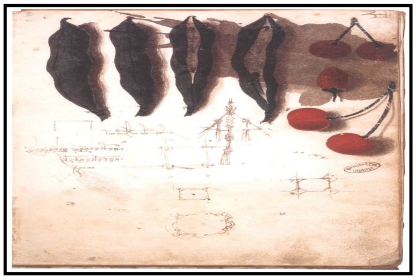

(شكل ٤) دافنشى- فاكهة و خضروات و رسوم- قلم و حبر ملون على ورق- ١٤٨٩م
مقتنيات Paris -Institut de France

(شكل ٥) دافنشى- دراسة لنبات نجمة بيت لحم و نباتات أخرى- قلم و حبر و باستيل أحمر على ورق- ١٥٠٧م
مقتنيات Windsor -Royal Library

تكشف العديد من الوثائق بشكل مؤكد أن "دافنشى" أصيب فى السنوات الأخيرة من حياته بمرض عصبي هو الشلل العضلي أحادى الجانب أو ما يعرف طبيا باسم " Hemi paresis"، وقد أشار "فيزوسى" فى مؤلفه إلى ذلك بقوله :

[لم يؤثر هذا الشلل فى قدرة "دافنشى" الفنية على الرسم، لكنه أعاق بالتأكيد قدرته على التحرك، من المحتمل أن مرضه هذا منعه من الوقوف، والقدرة على الإمساك بلوحة الألوان والفرشاة، ولكنه كان قادرا بما يكفى على أية حال للجلوس والرسم.. ربما بصعوبة]

ثم أضاف :

[تظهر لنا لوحات هذه الفترة تقدم "ليوناردو" فى العمر، علاوة على كون ذراعه اليمنى غير حرة الحركة بشكل كبير، حتى لتبدو وكأنه كان يربطها بضمادة معلقه بعباءته] (Vezzosi, 1997, p. 38)

ومن خلال هذا التحليل يخلص "فيزوسى" إلى تفسير منطقي حول ندرة الإنتاج الفني لـــ"دافنشى"خلال السنوات الأخيرة من عمره، وكذلك لماذا تبدو بعض أعمال تلك الفترة غير مكتملة. (شكل ٦)

(شكل ٦) دافنشى- العذراء و الطفل و القديسة آن و يوحنا الطفل- أحد أشهر أعمال دافنشى غير المكتملة- فحم و باستيل أبيض على ورق- ١٥٠٨م
مقتنيات London -National Gallery

النقطة المثيرة للاهتمام فى هذا الشأن هو ما اعترى أعمال "دافنشى" التصويرية المتأخرة من عيوب و"سقطات" غير مبررة فى النواحي التقنية، مما أدى إلى تهدم أجزاء منها، وتشوه البعض الآخر (شكل ٧) و (شكل ٨) ، وهو أمر غريب بالنسبة لشخص له قدرات ومهارات "دافنشى" فى مجالات عدة، علاوة على كونه باحثا فى مجالات الكيمياء والطبيعة والتشريح، بحيث يمكن تفسير ذلك الإخفاق التقني فى أعماله المتأخرة فى إطار ما كان يعتريه من أمراض ونوبات اضطراب سلوكية.

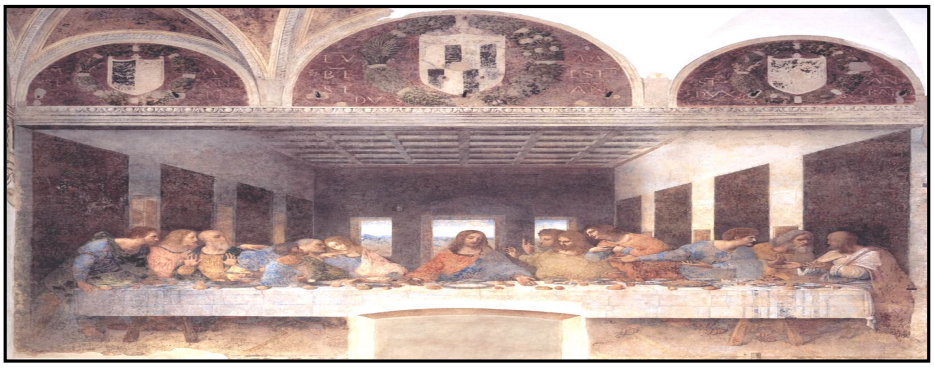

(شكل ٧) دافنشى- العشاء الأخير- ١٤٩٨م
العمل الجدارى الأشهر لـ"دافنشى" و الذى استخدم فيه تقنيات مختلفة بحيث أدى امتزاج الوسائط غير المتلائمة لتهدم أجزاء عديدة من العمل.
Milan –Convent of Santa Maria delle Grazie

(شكل ٨) دافنشى- العشاء الأخير
تفصيلية توضح مدى مظاهر التلف فى العمل نتيجة للتقنية غير الناجحة التى استخدمها الفنان

بالرغم من معاناته من مرض الشلل النصفي لم يتوقف "دافنشى" لا عن الرسم ولا عن تدريس الفن لتلامذته، وخلال هذه الفترة أنجز دراسة أولية للوحة "العذراء والطفل والقديسة "آن"، كما رسم عددا من الرسوم لخيول وقطط وتنانين ودراسات تشريحية، وتصميمات لآلات متعددة، علاوة على دراسة سريعة للقديس "جورج".

تُجمع كل الوثائق التاريخية تقريبا على أن "دافنشى" كان يستخدم يده اليمنى، ولم يكن أعسرا، ومع ذلك، يكاد العلماء والباحثون فى سيرته يجمعون على أن عبقريته فى الرسم والكتابة تتناسب أكثر مع شخص يستخدم يده اليسرى، يرجع ذلك إلى أن علماء الأعصاب يعتقدون بأن ميزة الشخص الأعسر العصبية تكمن فى أن النصف النشط من مخه يكون

النصف الأيمن والذي يتواجد به أيضا مراكز الإدراك المكاني والأبعاد، مما يؤهل الشخص الأعسر لأداء بعض الأنشطة بشكل أفضل.

على سبيل المثال كان "دافنشى" يكتب وثائقه ومذكراته الشخصية بيده اليسرى وبشكل معكوس أمام مرآة، بحيث لا يمكن قراءة الكلمات- أيضا- إلا من خلال صورتها المنعكسة على مرآة ، على الرغم من أنه لم يرد فى أية مذكرات أو وثائق كتبت عنه أنه استخدم يده اليسرى فى الرسم أو التلوين، وهو سلوك غريب يتفق مع سيرته المليئة بالمتناقضات والغموض.

المصدر الأساسي حول هذه الملاحظة هو مذكرات "أنتونيو دى بيتيس" " Antonio de' Beatis"، السكرتير الخاص للكاردينال "لويجى" "Luigi"، والذي تكفل- مع سيده- بدفع نفقات زيارة "دافنشى" فى العاشر من أكتوبر عام ١٥١٧م لمقاطعة "أراجون"، ولحسن حظ المؤرخين الذين بحثوا فى تاريخ "دافنشى" كان "دى بيتيس" معتادا على تسجيل كل شيء فى دفتر يومياته الخاص، من ضمن ما كتب (وكان أسلوبه أدبيا بعض الشيء) :

[فى العاشر من أكتوبر عام ١٥١٧، ذهب السيد "لويجى" كاردينال "أراجون" وبقيتنا لرؤية السيد الفلورنسى "ليوناردو دافنشى"، المصور الأرفع فى عصرنا، والذي عرض للكاردينال ثلاث صور، كانت إحداها تصور سيدة من فلورنسا (غالبا "إيزابيلا جوالاندا" "Isabella Gualanda")، والتي نقلها عن الطبيعة بتكليف قوى من "جوليانو ميدتشى"، الثانية تصور البابا "جون" فى شبابه، والثالثة تعرض العذراء والمسيح الطفل فى حجر القديسة "آن"، والتي كانت أفضل اللوحات الثلاث، فى الواقع لم يكن لأي منا أن يتوقع أي اللوحات الثلاث أنجزها قبل أن تصاب يده اليمنى بالشلل، وأيها تم إنجازه بعد ذلك، لكن على أية حال فقد كان للسيد "دافنشى" تلميذ بارع بقدر كاف هو "ميلانيس" "Milanese" ، وبالرغم من أن السيد "دافنشى" لم يعد قادرا على التلوين بنفس الجمال المعروف عنه، فمن المؤكد أنه لازال قادرا على وضع التصميمات وتوجيه الغير] (Goldscheider, 1944, p.19)

تكشف يوميات "دى بيتيس" عن حيرته فى تحديد قدرة "دافنشى" على استخدام كلتا يديه فى الرسم، وإن كان أكثر منطقية لعقله أن يعزو إنجاز الأعمال بعد مرض الفنان الكبير لتلميذه "ميلانيس" بدلا من افتراض أنه قد استخدم يده اليسرى بنفس المهارة والقدرة التى استخدم بها اليد اليمنى.

جاء وصف نهاية "دافنشى" فقط فى كتاب "فازارى"، حيث أورد فى مؤلفه كيف أن "دافنشى" تحول إلى مجرد شيخ هرم ومتعب، محروم من تناول العديد من أنواع الأطعمة، وفى الوقت نفسه- كما يشير "فازارى"- أصيب "دافنشى" بما يشبه "مسا شيطانيا" تشارك مع كل مشاكله الجسمانية للقضاء عليه، فكانت تنتابه نوبات عصبية كانت بمثابة "رسول الموت له" على حد وصف "فازارى".

تكشف الأعمال الأخيرة لـــ"دافنشى" عن تلك الحالة العصبية المضطربة، والتى عكست أسلوبا أقرب للاتجاه التعبيرى (الذى سيظهر فيما بعد خلال الفترة المتأخرة من عصر النهضة "Mannerism"، وسيمتد خلال القرنين التاسع عشر والعشرين) ، حيث أصبح "دافنشى" يركز على تصوير نوازل الطبيعة كالأعاصير والعواصف وموجات المد المدمرة من خلال رؤية ومعالجة خاصة (شكل ٨).

ويفسر المؤرخون هذه الفترة فى حياة "دافنشى" بأنها "مرحلة تفاقم الأمراض"، كان الفنان يبدو وكأن مرضا غريبا قد استحوذ عليه فجأة، وبدا على مشارف الموت بينما كان يتحدث لملك فرنسا الذى جاء بنفسه فى زيارة تاريخية شهيرة ليقابل صاحب هذه الموهبة الفذة، وتذكر الوثائق أنه لفظ آخر أنفاسه بين ذراعي الملك.

(شكل ٨) دافنشى- كارثة طبيعية- فحم و قلم و حبر على ورق- ١٥١٨م
مقتنيات Windsor-Royal Library

من خلال الوصف الذى أورده "فازارى" فى مؤلفه يمكن تصور كيف فجعت إيطاليا كلها لوفاة هذا العبقري المبدع، حيث جاء فى كتابه :

[أخيرا جاءت النهاية، بعد عدة أشهر من معاناته وسوء حالته، كان يرى نفسه محاطا بفئران حقول الموت، وبالنحيب والدموع، وقريبا من البابا ليدلى باعترافه ويعلن توبته، بينما بدا أتباع القربان المقدس وكأنهم يتلقون غنيمة بينما كانوا يلتفون حول سريره، يراقبون ألمه وعذاب روحه التى أساءت– فى نظرهم– لله وللإنسان فى الفن لأنها أخلصت للفن وقدمت فيه ما يليق، وآنذاك جاءت نوبة من رسائل الموت، فرفع الملك رأسه بين ذراعيه لعله يخفف عنه ما تعانيه روحه من ألم، ربما لم يكن هناك ميتة أشرف من أن تكون آخر أنفاسه بعد سبع وستين عاما فى أحضان الملك] (Vasari, 1550, 67)

كان موت "دافنشى" فاجعة أصابت إيطاليا، بل أوروبا كلها– بصدمة غير مسبوقة، فقد رحل ذلك المبدع بعد معاناة لم يقف أحد على سرها آنذاك، وهو الذى عاش محبا للحياة، محتضنا لتلاميذه وأصدقائه، متوحدا مع عناصر الطبيعة، ولعل الوصف الذى أورده "فازارى" لوفاة "دافنشى" يكشف عن العقلية الرجعية التى رأت ذلك العبقري الفذ عدوا عاش فى خصومة مع الله، فكان جزاؤه ما لقي من عذاب ومعاناة فى أواخر عمره..!!

فى عام ١٩٩٩م قام العالمان "فيلبيس" "Phillips" و"سيجاسوزى" "Segasothy" بمراجعة الفوائد العامة وكذلك الأعراض الجانبية المصاحبة للتغذية النباتية، وقد تمكن العالمان من استنباط قدرة التغذية النباتية على تقليل احتمالية الإصابة بأمراض الجهاز الدوري وحماية القلب وذلك من خلال عدة طرق أهمها تقليل كوليسترول الدم، وتقليل نسبة حدوث الجلطات (Phillips and Segasothy, 1999, p.40) ، ومن قبلهما قام العالم "جيلمان" فى عام ١٩٩٥م بمراقبة ٨٣٢ من النباتيين ولمدة عشرين عاما، وقد لاحظ العالم انخفاض احتمالية الإصابة بالجلطات الدماغية لديهم بنسبة اثنتين وعشرين بالمائة (Gillman, 1995, p. 52).

ورغم كل ذلك فقد أشارت الدراسات نفسها إلى أن اتباع نظام التغذية النباتية لفترة طويلة قد يؤدى- بالعكس- إلى حدوث أعراض جانبية أخطرها الجلطة الدماغية نتيجة لضيق ما يسمى طبيا بالـــ"شريان السباتى"، وذلك أن احتواء بعض النباتات على نسب عالية من الزيوت المشبعة قد يؤدى إلى زيادة الكوليسترول، وبالتالي حدوث التصلب العام للشرايين، وحتى مع الاستهلاك المستمر للنباتات التى لا تحتوى على تلك الزيوت المشبعة، فإن تأثير ذلك يكون سلبيا على هرمون الأنسولين وتأثيره المهم فى تخليق انزيم اوكسيد النيتريك المهم فى الحفاظ علي سلامة الأوعية الدموية.

كل هذه النظريات تشرح السبب حول تفاقم المرض فى سنوات "دافنشى" الأخيرة، وتفسر بشكل منطقى تراجع مهاراته وقدرته المتفردة على الإنتاج والإبداع، إذ تؤكد النظريات العلمية فى هذا الشأن أن بعض المراكز الموجودة فى المخ والمسؤولة عن الشعور وتحديد السلوك يعتريها بعض الخلل نتيجة الجلطة الدماغية التى أصيب بها "دافنشى"، يفسر هذا تلك النوبات التى كانت تنتابه، ووصفها معاصروه بأنها "مس شيطانى"، كما تفسر هذه النظريات بشكل كبير لم اختلف أداء "دافنشى" فى أوخر أيامه، وغلبت عليه تلك المسحة التعبيرية التى تعكس اضطرابا عصبيا وسلوكا غير مستقر بشكل عام.

لقد كان "دافنشى" ظاهرة، لا فى عصر النهضة، ولا فى إيطاليا وحدها، وإنما تجاوزت عبقريته حدود الزمان والمكان، وبالرغم من هذا، فلا شك أن جزءا كبيرا من تلك العبقرية يقف خلفها سلوك غير مألوف، أدى فى النهاية إلى تحول كبير فى أداء "دافنشى" ورؤيته الفنية، ولازال يلقى بظلال الغموض حول الكثير من تفاصيل حياته وأعماله، ويجعل منه مادة ثرية للبحث المستمر.

نتائج البحث

من خلال ما تم استعراضه فى البحث السابق يمكن الوقوف على عدة نتائج يوجزها الباحث فيما يلي من نقاط :

أولا : عاش "دافنشى" متوحدا مع الطبيعة ، مقدسا لكل أشكال الحياة ، حتى أن بعض المؤرخين فسر سلوكه بأنه أقرب لأتباع البوذية والهندوس، وكانت أعماله دائما تجسيد لهذه المعتقدات.

ثانيا : كان النظام الغذائي الذى اتبعه "دافنشى" سببا فى اعتلال صحته فى سنواته الأخيرة، وأدى إلى أن ظهور أعمال عدة بشكل منقوص، مفتقدة للدقة فى التقنية والأداء.

ثالثا : اعتمد "دافنشى" على تلاميذه فى إنجاز أعماله فى الفترة الأخيرة من حياته، وذلك بعد أن أدى نظام التغذية النباتى الذى كان يتبعه فى إصابته بجلطة أدت إلى حدوث شلل فى ذراعه اليمنى.

رابعا : غلب على أعمال "دافنشى" فى سنواته الأخيرة أداء تعبيرى، وكان أداؤه تجسيدا لتلك الاضطرابات العصبية نتيجة للجلطة الدماغية التى أصيب بها، وتلك الإصابة تفسر ما وصف فى عصره بأنه "مس شيطانى" كان ينتابه من وقت لآخر.

التوصيات :

وفى النهاية يوصى الباحث بالتعمق فى دراسة السيرة الذاتية للفنان "ليوناردو دافنشى"، حيث لازالت الوثائق التى تتكشف كل يوم عن حياته وفنه تلقى المزيد من الضوء عن سمات فنان يعد أيقونة عصره، وهو الأمر الذى من شأنه أن يرسم صورة متكاملة عن ظروف العصر وأفكاره وثقافة مجتمعه، ويثرى حقل الدراسة فى مجال تاريخ الفنون.

على الجانب الآخر فإن البحث فى العلاقة بين السلوك المرضى والإبداع فى سيرة المبدعين سواءا كانوا فى حقل الأدب أو فى مجال الفنون البصرية أو مضمار الموسيقى أو غيرهم من شأنه أن يعيد صياغة المفاهيم الاجتماعية والثقافية حول كيفية التعامل مع ذوى القدرات الخاصة، وذوى الإعاقات، والسير قدما فى طريق الاستفادة من هذه الطاقات البشرية وتوظيفها على النحو السليم بما يفيد المجتمع ويثرى الحركة الثقافية ويدفع بعجلة الفنون نحو التطور والارتقاء بالإنسان.

مصادر البحث :

* Bogousslavsky, J- Writers Disorders - Front Neurol Neurosci- Pasel- Karger- 2005.
* Bramly, S- Leonardo : Discovering the Life of Leonardo da Vinci- (Reynolds S: English Translation)- Staten Island- Brainiac Books- 1991.
* Gardener, H- Gardener's Art through the Ages- ed II- Boston- Wadsworth- 1975.
* Gillman, MW & Cupples, LA & Gagnon D & Posner BM & Ellison RC & Castelli WP et al: Protective Effect of Fruits and Vegetables on Development of Stroke in Men- JAMA- 1995.
* Goldscheider, L- Leonardo da Vinci- ed 2- London- Phaidon Press- 1944.
* Hennerici, M. G- Neurological Disorders and Creation- Front Neurol Neurosci- Pasel- Karger - 2010.
* MacCurdy, Edward- The Mind of Leonardo da Vinci- Phaidon Press-1928.
* Muntz, E- Leonardo da Vinci, Artist, Thinker, and Man of Science- London- Heinemann- 1898.
* Phillips PA and Segasothy M- Vegetarian Diet: Panacea for Modern Lifestyle Diseases? QJM- 1999.
* Richter, JP- The Literary Works of Leonardo da Vinci Compiled and Edited from the Original Manuscripts by Jean Paul Richter: (Commentary by Carlo Pedretti- Berkeley- University of California Press- 1977.
* Vasari, G- The Lives of the Most Excellent Italian Architects, Painters and Sculptors - University of Chicago Press- 1980.
* Vezzosi, A- Leonardo da Vinci: The Mind of Renaissance (translated from French)- New York- Abrahams- 1997.

المراجع :

١- يوهان بول فريدريش ريختر (١٧٦٣- ١٨٢٥م) : كاتب ألماني، كان ابناً لأحد المدرسين وعاش في ظروف شديدة الفقر ، اتجه إلى الكتابة والتأليف، وبعد فترة طويلة من رفض دور النشر لأعماله كتب أعمالاً جعلته مشهوراً لسنوات قليلة، وعندما كتب أحب أعماله إلى قلبه (تيتان، سنوات المراهقة) لم يجد نجاحاً يذكر، فاعتزل الحياة إلى أن توفى فى الثانية والستين من عمره.

٢- أندريا كورزالى (١٤٨٧- ؟) : مستكشف ورحالة إيطالى عمل فى خدمة عائلة الميدتشى، ارتحل إلى آسيا والبحار الجنوبية، وكتب عشرات الرسائل والتقارير حول رحلاته، وتكشف رسائله أنه من أوائل المستكشفين الذين توقعوا وجود قارة أستراليا.

٣- إيوجين مونتز (١٨٤٥- ١٩٠٢م) : مؤرخ فرنسى وأستاذ تاريخ فنون عصر النهضة، عمل كمحاضر بالمدرسة القومية للفنون الجميلة بفرنسا بين عامى ١٨٨٥ و١٨٩٣م، من أشهر مؤلفاته "Notes sur les mosaïques de l'Italie" عام ١٨٧٤م ، و" Histoire de la tapisserie" عام ١٨٨٢م.